الفصل الثالث

مثالية بوزانكت

- تمهيد
- حياته وأعماله
- المنطق ونظرية المعرفة
- الأخلاق والسياسة

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

لقد كان تأثير "برادلى" من القوة بحيث لم يكد يفلت منه أى مفكر هام ، ويمتد هذا التأثير فى جميع أطراف الفلسفة الإنجليزية المعاصرة آنذاك . فهو ظاهر فى أتباعه وخصومه على حد سواء ، ومن بين أقرب الأتباع نجد "برنارد بوزانكت" Bernard Bosanquet الذى كان يدين لـ "برادلى" بالكثير من الكتابات الأولى ، وتمثل فلسفته إعادة بناء مستقلة وتوسعاً وتطبيقاً لتعاليم "برادلى" الفلسفية . ونستطيع أن نقول ، إنه أعاد مذهب "برادلى" إلى نقطة بدايته الهيجلية الأولى ، فقد وسع من نظريته إلى العالم ؛ وطبقها وعرضها بكل ما فيها من نواح مثمرة فى جميع فروع الفلسفة [1].

وفى مجال المنطق ، فقد تأثر "بوزانكت" بـ "برادلى" فى رأيه أن الحكم هو الصورة المنطقية الأولى والأساسية . فالحكم معنى يكون كلاً عضوياً وبالتالى لا يمكن فهمه إلا فى ضوء الوحدة الوظيفية لأجزائه ، وعلى هذا الأساس ، فالحقيقة لا توجد إلا فى نسق بحيث تكون علامتها المميزة هى "الترابط" أى التوافق فى ارتباط جميع الأجزاء فى كل منظم ، بحيث يبدو فى النهاية على صورة نسق متكامل ، يصل من خلاله إلى المثل الأعلى أى المطلق [2].

والمطلق عند "بوزانكت" لا يختلف كثيراً عن المطلق عند "برادلى" فهو المثل الأعلى الذى نصبو إليه ، وهو النجم الذى يهدينا فى الارتقاء بطبيعتنا ؛ وهو الوحدة العليا التى تشمل الخاص ، والعام ، والطبيعى ، والروحى ، والضرورة ، والحرية . هذه الوحدة هى التى تتطلع إليها الميتافيزيقا . لكن نقطة الخلاف الرئيسية التى كانت موضع نقد ، والتى لم تكن مقبولة لدى المثالية (وبصفة خاصة مثالية "كيرد" و "جونس") هى فكرة التقابل بين الواحدية والثنائية . صحيح أن الموقف الذى اتخذه "برادلى" ومن بعده "بوزانكت" يمكن أن يُوصف بأنه واحدى بمعنى ما ، ولكنه بدا

موقفاً ثنائياً واضحاً (من وجهة نظر أولئك الذين يمضون فى اتجاه الوحدة إلى حد استخلاص أبعد نتائجها) . وهذه الثنائية مثل : ثنائية المظهر والحقيقة ، والمتناهى واللامتناهى ، والنسبى والمطلق .

* * * *

obeikan.com

حيـاتـه وأعمالـه

ولد "بوزانكت" فى مدينة "روك هول" Rock Hall بالقرب من لندن فى 14 يونيو عام 1848 ، وكان أبوه قسيساً من أسرة بروتستانتينية لجأت إلى إنجلترا . درس فى جامعة أكسفورد وكان من أساتذته الفيلسوف الإنجليزى "توماس هل جرين" (*). وعين بعد تخرجه فى جامعة أكسفورد من عام 1871 حتى عام 1881. ثم انتقل إلى لندن فى عام 1881 حيث أنشأ جمعية لندن الأخلاقية ، ثم قام بتدريس الفلسفة فى جامعة "سانت أندرو" من عام 1903 حتى عام 1908 [3].

وكانت بداية إنتاجه الفلسفى بحث نشر ضمن مجلد مهدى إلى ذكرى الفيلسوف "جرين" وعنوانه : "المنطق بوصفه علماً للمعرفة" وتلاه كتاب بعنوان "المعرفة والواقع" نشر فى لندن عام 1885 ، وفى هذا الكتاب ينقد كتاب "برادلى" "مبادئ المنطق " . وفى عام 1888 نشر كتابه الرئيسى فى المنطق ويقع فى مجلدين. أما فى الأخلاق فقد أصدر عام 1897 كتاب "سيكولوجية الذات الأخلاقية" وعام 1912 كتاب "مبادئ الفردية والقيمة" وعام 1913 "قيمة الفرد ومصيره" [4].

أما فى ميدان علم الجمال ، فإنه :

1- ترجم مقدمة كتاب هيجل فى علم الجمال ، وذلك فى عام 1896.

2- ألف كتاب فى تاريخ علم الجمال عام 1892.

(*) كان "جرين " فى مقدمة الفلاسفة المثاليين الذين حملوا على مذهب التجريبيين ونظرية التطور ومن أكبر العوامل على ظهور فلسفته أمران : أولهما سلبى ، وهو مقته الشديد لذلك النوع من الفلسفة الذى اعتاد الناس – إلى عهده – أن يعتبروه مثالاً للفلسفة الإنجليزية . وثانيهما إيجابى ، وهو أنه حذا حذو الفلاسفة المثاليين من الألمان مثل "كانط" و"هيجل" مما دعا إلى وصف فلسفته بحق بـ "الكانطية الجديدة" أو "الهيجلية الجديدة".

وفى عام 1920 أصدر كتابين الأول "عن الدين وماهيته" وبين فيه جوهر الاعتقاد وأسماه "ما هو الدين" أما الكتاب الثانى فيعتبر خاتمة أبحاثه فى المنطق وهو "التضمن والاستدلال التسلسلى" وقد ذهب فى هذا الكتاب إلى أن الاستدلال الذى يجب أن نأخذ به هو الاستدلال النسقى الذى تترابط خلاله كل الأحكام وكل الخبرات فى وحدة مترابطة ، وليس الاستدلال التسلسلى الذى ينظر إلى الأحكام نظرة تحليلية تقسم وحدة الفكر إلى قضايا منفصلة مبعثرة .

وتأكيداً لاتجاهه الواحدى نجده يوفق بين الآراء والفلسفات المتعارضة فى كتاب بعنوان : "تقابل الأضداد فى الفلسفة المعاصرة" نشر عام 1921 . كما نشر أيضاً كتاب : "المثل العليا الاجتماعية والدولية" و "ثلاثة فصول فى طبيعة الذهن" ، كما نشر له "مويرهيد" مقالة عن "الحياة والفلسفة" عام 1922 ، وهذه المقالة يبين فيها تأثير الأحداث العميقة فى حياته على تأسيس وإقامة نسقه الفلسفى وبنائه الميتافيزيقى . وفى عام 1923 توفى "بوزانكت" فى لندن بعد أن شارك فى الحياة الاجتماعية ، وساهم بكتبه المثالية فى الجانبين الفكرى والتطبيقى [5].

* * * *

المنطق ونظرية المعرفة

يذهب "بوزانكت" إلى أن المنطق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة ، ومن أجل هذا يبين فى كتابيه "أسس المنطق" و "المنطق أو مورفولوجيا المعرفة" هذه العلاقة الوثيقة . فيذهب فى كتابه "أسس المنطق" إلى :

" أن المعرفة هى الحكم الذى يوجد بين تفسيرنا التركيبى للشىء وبين الحقيقة التى يدل عليها إدراكنا للشىء " (6).

بل يذهب فى مقدمة كتابه "المنطق أو مورفولوجيا المعرفة" إلى :

" إننى بإعطائى هذا العنوان (مورفولوجيا المعرفة) إنما أقصد أن أشير إلى الدراسة غير المتحيزة للحكم والاستدلال خلال صور عديدة يمكن أن نتعقبها بسهولة " (7).

وعلى ذلك فالمقصود من هذا العنوان الفرعى هو عرض لنمو الأشكال المنطقية وارتباطها الباطن ، وكان هذا خروجاً منه على طريقة الاكتفاء بالتعداد والتصنيف التى يتبعها علماء المنطق الصورى ، فقد كان منذ البداية مهتماً بحركة الفكر المنطقى وعلاقته الأساسية بالنسق . ولم يكن التفكير فى نظره أفعالاً ذاتية وإنما رأى أنه يدين بطابعه المميز لإشارته إلى المجال الموضوعى للأشياء ، وهو المجال المستقل عن هذه الأفعال ؛ فهو يدرك الحقيقة ويصبح هو وإياها شيئاً واحداً (8).

وهكذا ، فإن للمنطق نفس مضمون الميتافيزيقا ، وأن عبارة "هيجل" القائلة "إن الحقيقة هى الكل" ، لتصح على الأول مثلما تصح على الثانية . هذه الفكرة تنتشر فى جميع أفكار "بوزانكت" . فالحقيقة لا تكون إلا فى "نسق" بحيث إن علاقتها المميزة هى "الترابط" Coherence أى التوافق فى ارتباط جميع الأجزاء فى كل منظم ، لا فى التطابق الخارجى بين الفكر والواقع – كما تقول نظرية

التطابق (*) والوقائع الخالصة لا تكون لها واقعية ولا حقيقة حتى ترتبط مع وقائع أخرى وتدرك مكانها فى ترتيب الكل .

والصورة المنطقية الأولى والأساسية عند "بوزانكت" – كما هى عند "برادلى" – هى "الحكم" لا التصور ، إذ ليس للتصور مكان فى التفكير الفعلى إلا بوصفه جزءاً عضوياً من حكم ما . فالحكم معنى يكون كلاً عضوياً ، وبالتالى لا يمكن فهمه إلا فى ضوء الوحدة الوظيفية لأجزائه ، أما إذا أخذنا تعدد هذه الأجزاء ونحللها ، كان ذلك تمزيقاً لنسيجها الحى . وكل فعل للحكم يشير إلى واقع خارج هذا الفعل ذاته . وقد رأى "بوزانكت" أن حكم الإدراك الحسى المألوف يعد تعبيراً جزئياً عن الواقع ، أما الحكم الكامل فلن يكون أقل من تأكيد الواقع كله فى أعم صورة له .

لذلك ، فإن الواقع – بما هو كذلك – هو ، فى آخر الأمر ، الموضوع المميز لكل حكم صحيح ، وفى كل حكم تـُفترض مقدماً كلية الأشياء بطريقة أو بأخرى على الدوام حتى ولو كنا لا ندركها فى عملية الحكم إلا بطريقة جزئية (9).

ويتضح نقص المنطق الصورى الاستقرائى الذى قال به التجريبيون على السواء ، إذا ما قيسا بالفكرة التى ترى المنطق متوقفاً على "النسق" وعاملاً يدخل فى تركيب الواقع . ويزداد ذلك وضوحاً فى فكرة "الاستدلال" عند "بوزانكت" ، وهى الفكرة التى يعرضها فى كتابه "المنطق" ، كما يقدم لها عرضاً مستفيضاً فى بحثه "التضمن والاستدلال التسلسلى" فهو هنا يميز بين نوعين ممكنين للاستقراء : التسلسلى والنسقى . فالقياس – الذى هو أصدق ممثل لكل أنواع الاستنباط – يسير تبعاً للنوع الأول ، فهو يربط محمولاً بموضوع ويأخذ النتيجة على أنها موضوع جديد ويربط بها محمولاً آخر وهكذا يسير على شكل متسلسل . ومعظم الاستدلالات المسماة بالاستقرائية تسير على النمط نفسه . أما النوع الآخر – الذى يفضله

(*) نظرية التطابق هى مطابقة الفكر للواقع الخارجى ، ففى معظم التعبيرات الشائعة نجد أن وصف أى قول بأنه صحيح يعنى أنه يطابق "ما يقع بالفعل" وأنه تعبير صحيح "عما يحدث فى الواقع".

"بوزانكت" – فهو الاستدلال النسقى أى تضمنياً بدلاً من التسلسلى ، بحيث يكون التضمن هو تشابك الأجزاء فى كل نسقى سابق عليها يوجه العملية الاستدلالية كلها ويتغلغل فيها نتيجة لصفة السبق هذه . ففى كل استدلال حقيقى ، سواء أكان ذلك فى التفكير العلمى أم فى التفكير اليومى ، استعراض نسق من الوقائع بنسق أكبر للواقع ، ويظهر المتضمنات بطريق مباشر أو غير مباشر ، وكلما كانت ارتباطات النسق فى أى فرع للمعرفة أكمل وأشمل ، كانت تلك المعرفة أرفع [10].

* * * *

obeikan.com

الأخــلاق والسيـاسـة

فى ميدان الأخلاق والسياسة ، كان "بوزانكت" يسلك نفس الطريق المثالى الذى سار فيه "أفلاطون" و "أرسطو" و "روسو" و "هيجل". فقد كان "بوزانكت" أول مفكر فى إنجلترا يقوم بعملية إحياء حقيقية لفكرة "الدولة" كما تصورها "هيجل" ، فى مقابل النظريات القومية الليبرالية عند "بنتام" و "جون ستيوارت مل" و"هربرت سبنسر".

والمشكلة الأساسية هى علاقة الفرد بالمجتمع ، وهى المشكلة التى سرعان ما أصبحت جزءاً من المشكلة الميتافيزيقية العامة "مشكلة علاقة الجزء بالكل". فالفرد المنعزل الذى اتخذت منه جميع النظريات السياسية الإنجليزية تقريباً نقطة بداية لها ، لا يمكن أن يكون هو الفرد الذى نعرفه فى المجتمع أو الدولة والذى نهتم به فى هذا الفرع من الفلسفة ، كذلك لابد أن يكون هناك خطأ فى الافتراض القائل إن الناس بطبيعتهم أفراد من هذا النوع ، ينعزل بعضهم عن البعض ، أو حتى يعارض بعضهم البعض ، ولا يجتمعون سوياً فى مجتمع إلا فى مرحلة متأخرة وبطريقة مصطنعة . فلقد خطا "روسو" خطوة هائلة إلى الأمام، واستبقت النظرية المثالية فى الدولة بتمييزه بين "إرادة الجميع" و "الإرادة العامة" . فالأولى لا تعدو أن تكون مجموع الإرادات الخاصة ، بينما الثانية تتضمن فكرة الوحدة العضوية [11].

ويوضح "بوزانكت" هذا التميز فيضرب لنا مثلاً : هو التفرقة بين "الحشد" الذى اجتمع كيفما اتفق ، و "الجيش المنظم" . فليس بين أفراد النوع الأول ما يشتركون فيه إلا تجمعهم سويّاً ، أما أفراد النوع الثانى فيجمعهم تنظيم يتحدد فيه الأفراد تبعاً لكل منظم يتغلغل ويحيا فيهم . وعندما تتغلغل فى الفرد – على هذا النحو – الإرادة العامة يتخلص من عزلته ولا يعود مفككاً منفصلاً عن غيره ، ويرتفع إلى مستوى أعلى ويبلغ فرديته الأصلية التى تنتمى إلى ذات تربطها بالكل الجماعى رابطة عضوية . وبهذه النظرة العميقة إلى الفردية حطم "بوزانكت" أساس النزعة الفردية فى النظرية التجريبية فى الدولة .

مراجع الفصل الثالث من الباب الخامس

(1) A. C. Ewing, The Idealist Tradition, From Berkeley to Blanshard, The Free Press, 1957, p. 153.

(2) رودلف متيس ، الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام ، ص 433.

أيضاً : Haldar, Hiralal, Neo – Hegelianism, p. 258.

(3) د. عبد الرحمن بدوى ، موسوعة الفلسفة ، الجزء الأول ، ص 376 .

(4) د. على عبد المعطى ، بوزانكت قمة المثالية فى إنجلترا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973 ، ص 63.

انظر أيضاً : A. C. Ewing, op. cit., p. 157.

(5) رودلف متيس ، المرجع السابق ، ص 64.

أيضاً : د. على عبد المعطى ، المرجع السابق ، ص 64.

(6) Bosanquet, The Essential of Logic, Lecture 11, Oxford, at the Clarendon, press, 1923, p. 29.

(7) Bosanquet, Logic or Morphology of Knowledge, Oxford University press, 1920, p. 1.

(8) رودلف متيس ، الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام ، ص 432.

(9) المرجع السابق ، ص 433.

انظر أيضاً : Haldar, Hiralal, op. cit., p. 273.

(10) A. C. Ewing, The Idealist Tradition, p. 163.

(11) د. عبد الرحمن بدوى ، موسوعة الفلسفة ، ص377.

أيضاً : رودلف متيس ، المرجع السابق ، ص ص435 – 436.

قارن كذلك :

William Sweet , Idealism and Rights : The Social ontology of

obeikan.com

Human Rights in The Political Thought of B, Bosonquet , university Press of America , 1997 .

* * * *

obeikan.com